النصيحة ومقاصدها في الفكر الإسلامي والفكر الغربي
"دراسة مقارنة"

الأستاذ المساعد الدكتور: سعيد أحمد صالح فرج
عميد التطوير الجامعي والجودة النوعية
جامعة المدينة العالمية– ماليزيا–

ملخص البحث

فإن ديننا الإسلامي قد حثنا على تحقيق الخلق الرفيع على المستوى الفردي وعلى المستوى المجتمعي، ومن ضمن الوسائل لتحقيق هذا الخلق على المستوى المجتمعي النصيحة، التي يختلف فيها النظام الإسلامي عن التقاليد الغربية المختلفة كل الاختلاف؛ حيث قام ديننا بالحث على واجب النصح وتقديمه بآدابه، وجعله لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وجعل هذا من أعمدة الدين بل جعله المصطفى -صلى الله عليه وسلم- العمود الأساسي والركن الأعظم في إقامة الدين، كما سيأتي معنا في الحديث الشريف، وهذا لسمو ديننا، أما في المجتمعات والتقاليد الغربية القائمة على نظريات مقطوعة عن السماء وتنتمي إلى التجارب البشرية الغير معصومة، فقد سادت أخلاقيات الانفرادية والانعزال عن المجتمع واهتمام كل شخص بنفسه، فقتلوا النصيحة وتقديمها بحجة عدم التدخل في شؤون الآخرين، وحاربوها باسم الحرية الشخصية.

وفي هذه الورقات حاول الباحث البحث عن المقاصد الشرعية من النصيحة بالرجوع إلى النصوص الشرعية فيها، ثم عمد إلى النظر في أسس الفكر الغربي ومرجعهم في هذا، وقارن بين المنهجين من أجل التوصل إلى مكمن الخلل في الثقافات الغربية، وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي الاستقرائي الاستنباطي، من خلال استقراء النصوص الشرعية الواردة في النصيحة، واستنباط المقاصد الشرعية، ثم التحليل والاستنباط والمقارنة بين المنهجين لبيان عوار المنهج الغربي ومدى صلاحيته لنهضة المجتمعات الغربية في شتى الجوانب.

وقد توصل الباحث إلى عدة نتائج لعل من أهمها: أن الفكر الغربي القائم على الأسس المادية لم يجعل للنصيحة مكانًا في اعتباره، وأن حقيقة المقارنة بين المقاصد الشرعية للنصحية والنصيحة في الفكر الغربي هي مقارنة بين شيء ولا شيء، وأن الفكر الغربي قد قدَّس الحرية الفردية حتى طغت على النصيحة واعتبروا أن النصيحة تُعدُّ من التدخل في شؤون الغير.

المقدمة:

الحمد لله القائل: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء: الآية ١١٤]، والصلاة والسلام على نبيه الكريم القائل: ((الدين النصيحة)) وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ...

فإن العالم بهذا الدين الحنيف يعلم علم اليقين عظم خلق النصيحة في ديننا، ولذلك كان هذا البحث يتناول هذه الشعيرة العظيمة مبينًا فيها المقاصد الشرعية لها، وكذلك مقارنتها مع الفكر الغربي.

أهداف الدراسة:

١- بيان المقاصد الشرعية للنصحية.
٢- مقارنة مفهوم النصيحة في الفكر الإسلامي والفكر الغربي.
٣- مقارنة بين مقاصد الشريعة في النصيحة والفكر الغربي.
٤- إبراز أهمية خلق النصيحة ونشره في المجتمع.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة هذا البحث في الأخلاقيات الغريبة التي بدأت تستشري في المجتمع المسلم الذي اختاره الله -عز وجل- لحمل هذه الرسالة، ولكن الأجيال المتأخرة بدأت بالسعي -بل بالهرولة- نحو الاتجاه الغربي لما رأوه في الحياة الغربية من تمدن ومعاصرة وتقدم؛ فجعلت هذه المشكلة الحافز لعقد مقارنة بين المجتمع المسلم الافتراضي والمجتمع الغربي في خلق من الأخلاق وهو النصيحة وبيان تأثيره ومقاصده في المجتمع، ثم المقارنة بينه وبين الحياة الغربية، ويمكن صياغة هذه المشكلة بعدة أسئلة هي:-

١- ما هو مفهوم النصيحة؟
٢- ما هي المقاصد الشرعية في النصيحة؟
٣- ما هي النظرة في الفكر الغربي للنصيحة؟
٤- هل هناك تأصيل للنصيحة في قيم الفكر الغربي؟

وسأتكلم في هذا البحث بإيجاز عن النصيحة بتعريف مختصر واهتمام الشارع بها وجعلها أساسًا من الأسس الأخلاقية في المجتمع المسلم، وعن المقاصد الشرعية للنصيحة من خلال النصوص الشرعية، وعن أسس القيم في الفكر و المفهوم الغربي من خلال نظر أشهر الفلاسفة الغربيين، ومدى تحقق المجتمعات الغربية بهذه النظريات، وسأقارن بين المنهجين والمقصدين وتقويم سلوكيات المجتمعين بناء على هذا الخلق وبيان مكمن الخلل في ممارسة هذا الخلق من عدمه.

تعريف النصيحة:

النصيحة: نَصَحَهُ وله كمنعه نُصْحًا ونَصاحَةً ونَصاحِيَةً، وهو ناصِحٌ ونَصِيحٌ من نُصَّحٍ ونُصَّاحٍ والاسمُ: النَّصيحَةُ. ونَصَحَ: خَلَصَ والثَّوْبَ: خاطَهُ وأصل النُّصْح في اللغة: الخُلوص. يقال: نَصَحَتُه ونَصَحتُ له. ومنه التوبة النصوح، وهي الخالِصة التي لا يُعاوَدُ بعدها الذنب، وهي كلمة يُعَبِّرُ بها عن إرادة الخير للمَنْصوح له، وليس يُمكنُ أن يُعَبَّر هذا المعنى بكلمة واحدة تَجْمَع معناه غيرها، وهي كذلك الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد، وقال الخَطّابيّ: النَّصِيحَةُ كلمةٌ جامعةٌ معنَاهَا حِيازَةُ الحَظّ للمَنصوح له، ومن معانيها بَذْلُ الاجتهادِ في المشُورةِ، وقالوا النَّصِيحة كلمةٌ جَامعَةٌ، مُشتقَّة من مادّة نصح الموضوعة لمعنيَين: أَحدهما الخُلوص والنّقَاء، والثاني الالْتئامُ والرِّفَاءُ[1].

الأمر بالنصيحة أمر بمقدور:

جاء الإسلام وجعل كل القواعد الأخلاقية التي حث عليها ممكنة التطبيق، غير موصوفة بالتعجيز والاستحالة في ممارستها، مما يمكن للمسلم العادي للأخذ بها بناء على القاعد التي تقول: لا تكليف إلا بمقدور، وهي مستمدة من قول الله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} ولكن ذلك لا يعني أن تكون القواعد الأخلاقية بعيدة عن أي نوع من المشقة أو أن تكون بحيث لا تتطلب أي جهد في العمل بها، فإن ذلك بخلاف الواقع، فإن تربية النفس وتهذيب السلوك ومقاومة الرغبات والشهوات كل ذلك يتطلب مجاهدة ومشقة، ولكن يمكن احتمالها، وليس العنت والضيق المقصودين بها والرسول – صلى الله عليه وسلم– إنما جاء للناس ليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالقواعد الإسلامية واقعية ومناسبة لطاقة البشر، وهي ليست قواعد مثالية يتطلع إليها الإنسان دون أن يتمكن من تطبيقها وبلوغها، وهي مع تلك الصفة الواقعية فيها كفيلة إذا طبقت أن تخلق الإنسان المفلح المستقيم في خلقه وسلوكه وشخصيته.

أنواع القيم في الإسلام:

النصيحة من أهم القيم الإسلامية التي عليها صلاح المجتمع، وقد جرت عادة المفكرين المسلمين المهتمين بدراسة القيم أن يردوها إلى ثلاثة أنواع:

القيم العليا: وهي القيم الكلية الكبرى التي تسمو بالإنسان إلى معالي الأمور وترفع مستواه على سائر المخلوقات، ومن تلك القيم: الحق والعبودية والعدل والإحسان والحكمة، وتعد هذه القيم من أرقى

---

١ – تاج العروس من جواهر القاموس ج٧ ص١٧٥، النهاية في غريب الحديث ج٥ ص١٤٢، القاموس المحيط ج١ ص٣١٢، ٣١٣، لسان العرب ج٢ ص٦١٥، التعريفات ج١ ص٣٠٩، مختار الصحاح ج١ ص٦٨٨.

القيم الإسلامية وأسماها وأعلاها على الإطلاق، وتكتسب هذه القيم مكانتها العالية من خلالها مضامينها.

القيم الحضارية: وهي القيم المتعلقة والمرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالبناء الحضاري للأمة الإسلامية متمثلة في التقدم العقلي والمادي معًا، وهي ذات طابع اجتماعي عمراني كالاستخلاف والمسؤولية والحرية والمساواة والعمل والقوة والأمن والسلام والجمال وغيرها.

القيم الخلقية: وهي القيم المتعلقة بتكوين السلوك الخلقي الفاضل عند المسلم ليصبح سجية وطبعًا يتخلق به ويتعامل به مع الآخرين لتكوين مجتمع إسلامي فاضل تسوده المحبة والوئام كالبر والأمانة والصدق والأخوة والتعاون والوفاء والصبر والشكر والحياء والنصح والرحمة[٢].

٢ – القيم بين الإسلام والغرب ص ٢٤.

المقاصد الشرعية في الأمر بالنصيحة:

مما شاع في الثقافة الإسلامية إعمال المقاصد في المعاملات، حتى أورد الإمام الشاطبي في موافقاته: الأصل في العبادات بالنسبة إلى المكلَّف التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وأصل العادات الالتفات إلى المعاني[٣]. ومما لا شك فيه أن الشارع الحكيم وضع الشريعة كاملة لحكمة، ولكل حكم في الشريعة –سواءً كان في الاعتقاد أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق– حكمة علمها من علم وجهلها من جَهِل، ومما يتعلق ببحثنا قضية الأخلاق والقيم التي هي ركيزة لصلاح المجتمع فقد جعل الإمام العز بن عبد السلام من الأخلاق في كتابه "شجرة المعارف" ميدانًا خصبًا لمقاصد الشريعة الإسلامية، قال: "الحياء وازع من كل قبيح، فمن لاحظ جانب العباد استحى منهم، ومن لاحظ جانب الله استحى منه، ومن لاحظ الجانبين أعطى كل واحد منهما حقه من الحياء، ومن اطَّرح الحياء صنع ما شاء من القبائح والسيئات"[٤].

ويقول: "الشح والبخل وسيلتان إلى منع الحقوق، وسفك الدماء، وقطع الأرحام"[٥]، ويقول في باب "ترتيب المصالح والمفاسد": "والصدق، الذي لا يضر ولا ينفع مباح؛ فإن أضر كان فيه إثم ذلك الإضرار على اختلاف مراتبه، فمن دلَّ ظالما على مال معصوم، أو بُضعٍ، أو نفس، أو غير ذلك من الحقوق، فلا إثم عليه، من جهة كونه صادقا، وعليه إثم الدلالة على ذلك الإضرار"[٦]، وعليه فكل خلق من الأخلاق لديه مقاصد سعى الشارع لتحقيقها والعمل على إيجادها ومنها النصيحة التي نحن بصددها.

٣ – الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، تحقيق أبو عبيدة آل سلمان ج٢ ص٥١٣.

٤ – المرجع السابق ج٢/٥١٣–٥١٧.

٥ – شجرة المعارف، ص١٢٨.

٦ – شجرة المعارف، ص٣٥٧.

المقاصد الشرعية في النصيحة واهتمام الشارع بها:

من وجهة نظر الباحث هناك أكثر من مقصد شرعي من تشريع النصيحة وجعلها الركن الأهم كما جاء في الحديث الصحيح "الدين النصيحة"[٧]، ولعل من أبرز المقاصد الشرعية في إقامة النصيحة.

وقاية المجتمع من الضعف والانحلال:

جاء تشريع النصيحة لحماية المجتمع من الفساد والحد من نشر الفوضى فلا حرية لأصحاب الفساد والمفسدين، وليس معنى حرية الفرد في الإسلام أن يباح لأي فرد أن ينفث سموم الفساد الخلقي باسم الحرية وعدم إقرار أي فرد على اعتبار إتيانها إحدى حرياته الفردية، وبهذا المنع نحول بين بؤر الفساد وبين نشر عدواها، وانتشار الفساد والعدوى به تتم بسرعة إذا سكت عنه المجتمع على أن الإسلام دين الحياة والواقع، والمجتمع الذي يخلو من كل صور الفساد والرذيلة لا وجود له إلا في أصحاب المذاهب الفلسفية الخيالية، ولهذا فقد عالج الإسلام الواقع، فإذا وقعت بعض حوادث الفساد والجرائم الخلقية فإن الإسلام قد وضع من القواعد الخلقية ما يمنع تأثيرها الضار على المجتمع وذلك عن طريق ستر الجرائم[٨].

وهذا هو حبل النجاة من الخسارة في الدارين، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)}[٩] والتواصي بالحق مفهوم كبير يدخل تحته الالتزام به ودعوة الناس للالتزام به، ولأن المسلمين أمة واحدة فإن الله تعالى أوجب على كل فرد فيهم أن يقوم بتقويم عوج الآخر ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ وذلك لتستقيم الأمة كلها على كلمة سواء وشريعة واحدة، ويلتزم الجميع بالحق قولًا وعملًا، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[١٠] فولاية المؤمنون بعضهم بعضًا فيها جانب النصح والدلالة على الخير والتحذير من الشر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها من لوازم التآخي في الله، ولأنها مانعة وخطوة استباقية لانحلال المجتمع أو ضعفه.

---

٧ – البخاري، محمد إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ج١ ص٢١، مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ج١ ص٧٤.

٨ – الأخلاق في الإسلام يعقوب مليجي ص ١١١، ١١٢.

٩ – سورة العصركاملة.

١٠ – سورة التوبة الآية ٧٢.

الوصول إلى قوة المجتمع ووحدته "خيرية الأمة":

لا يتحقق لأي مجتمع ما ينشده من قوة إلا إذا قوي فيه صوت الحق وعلا وظهر الداعون إلى الخير وتوارى صوت حزب الفساد وزمر الشر؛ لأن ذلك يؤدي إلى خلق ظاهرة اجتماعية هامة هي الرأي العام الذي يدافع عن المبادئ الخلقية ويعمل على صيانتها ويتصدى لمن ينتهك حرماتها والرأي العام القوي السليم هو الذي يشد أفراد المجتمع ببعضهم إلى بعض ويقوي أواصرهم ونشر صور الفضيلة وتشجيع أصحاب الأخلاق السامية وتزكيتهم هو السبيل إلى تقوية المجتمع وحفز عزائم أفراده للتعلق بالمثل والقيم الرفيعة[11].

ولقد وصف الحق –سبحانه وتعالى– أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها خير أمة أخرجت للناس فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[12] فبين الله –سبحانه– أن هذه الأمة خير الأمم التي أخرجت للناس، فهي أنفعهم لهم وأعظمهم إحسانًا إليهم؛ لأن كل أمورهم خير نفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق والمجتمع القوي هو المجتمع الذي يتخذ من النصيحة ممارسة عملية وسلوكًا مجتمعيًا أساسيًّا؛ فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعونه فلا يستجاب لكم))[13].

ولقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قدوة حسنة للصحابة –رضوان الله عليهم– في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[14].

فبالرسول –صلى الله عليه وسلم– أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر، كما أن

١١ – الأخلاق في الإسلام يعقوب مليجي ص ١١١، ١١٢.

١٢ – سورة آل عمران: الآية ١١٠.

١٣ – الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ج٤ ص٤٦٨، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الأولى. ١٣٤٤ هـ، ج١٠ ص٩٣ وقال الشيخ الألباني حديث صحيح انظر:الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ج١ ص١٣٠٣ وقال حديث صحيح.

١٤ – سورة الأعراف الآية ٧.

إحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف، ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف[١٥].

وقد تأسى الصحابة بالرسول –صلى الله عليه وسلم– واقتدوا به؛ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتناصحوا فيما بينهم، ووفوا بما بايعوا عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تلك البيعة التي حدث عنها الوليد عبادة بن الصامت[١٦] فقال: بايعنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم[١٧].

إصلاح النفس البشرية:

إن إصلاح النفس من مقاصد التشريع بشكل عام، ولا يخفى أثر النصيحة على النفس قبل أن تكون على الغير، ولذلك خاطب الله تعالى من ينصح الناس وينسى نفسه بخطاب شديد قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[١٨] والناصح للغير يجد في نفسه امتناعًا عن إتيان ما نهى عنه الناس ودافعًا لما أمر به غيره، والناصح للغير العامل بما يعمل الداعي للخير القدوة الحسنة لا بد أن يكون صالحًا في نفسه وهناك ارتباط وثيق بين دعوة الناس وإصلاح النفس.

إصلاح المجتمع:

كلف الله –سبحانه وتعالى– عباده الصالحين بإقامة حكمه في الأرض وتطبيق شرعه والعمل بما جاء به الإسلام ولا يكفي ذلك بالتزام المرء ولكن لا بد أن يكون لبنة حسنة، صالحا في المجتمع ويسعى إلى صلاح من حوله ولذلك شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة هي من أعمدة الدين ولا يعني وجود هذه الأمة أن تكون خالية من الجريمة ومن النفاق؛ فالعصر الذهبي الأول خير أمة أخرجت للناس كان على طهارته غير خالٍ من المنافقين، فقد كان هناك عدد كبير منهم، وكذلك لم يخل مجتمعها من الجريمة، فقد كان هناك من زنى فرجم، ومن سرق فقطع، ومن غدر فجوزي بجنس عمله قطعًا ليديه

١٥ – الأخلاق في الإسلام يعقوب المليجي ص١١٢.

١٦ – مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ج٣ ص١٤٧٠.

١٧ – الأخلاق في الإسلام يعقوب المليجي ص١١٢.

١٨ – سورة البقرة: الآية ٤٤.

ورجليه وسمّلًا لعينيه، وكل هؤلاء من الذين استظلوا بمظلة الإسلام وأشهروا وأعلنوا إسلامهم، ولكن كان الشر هذا مستخفيًّا لا مستعلنًا واليد العليا لله ولرسوله وللقائمين بأمره.

فقد دل كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– على وجوب إصلاح المجتمع ومن الآيات الدالة على وجوب السعي في إصلاح الأمة قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٩] فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة التي لا غنى للمجتمع الصالح عنها، ولما قامت هذه الأمة في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصفها الله بقوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...} الآية.

ووعد الله هذه الأمة بالنصر والتمكين في الأرض فقال –سبحانه وتعالى–: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون}[٢٠].

المحافظة على المقاصد العامة في التشريع المتمثلة في الكليات الكبرى:

والمقصود أن القيام بالنصيحة هو كما دلت عليه النصوص قيام بأمور الدين وعليه فالقيام بها حفظ للكليات الخمس الكبرى في الشريعة الإسلامية والقيام بأمر النصيحة لا يتنافى مع قول الله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...} وقوله تعالى: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ...}.

والآية الأولى مدنية وهي نص واضح أنه لا يجوز إجبار أحد في الدخول في الدين، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة والآيات كثيرة في هذا المعنى، ولكن هناك آيات تدل على الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن ونشر الإسلام في أرجاء المعمورة والتحفيز بجعل الأجر الكبير لهذا العمل قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٢١] وقال –صلى الله عليه وسلم–: ((لأن يهدينَّ الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم))[٢٢].

ومما يدل على أن النصيحة فيها حفاظ للكليات الخمس أن الشارع الحكيم جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما قال –صلى الله عليه وسلم–: ((من رأى منكم منكرا فليغيره ...))[٢٣]. وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

١٩ – سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

٢٠ – سورة النور: الآية٥٥.

٢١ – سورة فصلت: الآية ٣٣.

٢٢ – البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٤ ص٧٤.

٢٣ – مسلم، مسلم بن الحجاج، ج١ ص٦٩.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[٢٤].

وهذا معناه أن تكون الأمة جميعًا متضامنة متعاونة متحابة آخذة على يد السفيه مانعة أي انحراف عن الدين، وهكذا يكون الحفاظ على الدين مسئولية كل واحد في هذه الأمة، هذا الذي جعل تبليغ الدين ونشر رسالته هي مهمة الأمة كلها.

ومثل الحفاظ على الدين الحفاظ على الكليات الكبرى الأخرى التي راعاها الشارع من حيث النصح بالقيام بها أولا، والنصح بالحفاظ عليها ثانيًّا، فالحفاظ على النفس؛ لأن العدوان على النفس الإنسانية بالقتل جريمة كبرى، بل لا أكبر منه بعد الشرك كما قال –سبحانه وتعالى– تعقيبًا على قتل أحد ولدي آدم لأخيه: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}[٢٥].

وقال أيضا –سبحانه–: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[٢٦] وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم))[٢٧].

ومنها أيضًا الحفاظ على النسل:

ولا نعني بكلمة النسل هنا مجرد الولادة والإنسان؛ لأن للإنسان ميزة خاصة عن سائر الحيوانات في النسل، وهو صلات القربى التي تسمى في الشريعة بالأرحام، فالأبوة والبنوة والأخوة والأمومة والعمومة والخئولة هذه الصلات التي تقوم بين أبناء الأسرة الصغيرة والعائلة الكبيرة ثم القبيلة ثم الشعب هي التي يتوقف عليها وجود أمة صالحة يترابط أفرادها، وكذلك وجود فرد صالح تنمو فيه المشاعر الإنسانية كالرحمة والفداء والعطف والشعور بالمسئولية نحو الآخرين.

ومنها أيضًا الحفاظ على العرض:

والمقصود هنا النفس المعنوية للشخص، فكما حافظت الشريعة على النفس المادية وحرمت العدوان على الدم فإنها جاءت أيضًا بالحفاظ على نفس الإنسان المعنوية وهي سمعته وكرامته وعرضه، فجعلت سباب المسلم فسوقًا، وحرمت الغيبة والنميمة والغمز واللمز والطعن في الأنساب وتفاضل الناس

٢٤ – سورة التوبة الآية ٧٢.

٢٥ – سورة المائدة الآية ٣٢.

٢٦ – سورة النساء الآية ٩٣.

٢٧ – الألباني، صحيح وضعيف سنن النسائي ج٩ ص٥٩.

في اللون أو الموطن أو الجنس وجعلت العقوبات على التعدي على هذه الأمور عقوبات تعزيرية متروكة لحكم الحاكم واجتهاده وذلك ليقرر فيها العقوبة المناسبة.

ومنها أيضًا الحفاظ على العقل:

الذي يملك به التمييز ويفهم به الأشياء، فقد نهى الشارع عن كل ما من شأنه أن يشوش الفهم السليم ويصرف العقل عن مساره الصحيح، وفرض في بعض هذه الأمور عقوبات رادعة، وإن كان بعضها يدخل في باب الحفاظ على الدين؛ لأن بعضًا منها قد يؤدي إلى الردة والكفر، ومعلوم أن حد الردة قد شرع حفاظًا على الدين.

ومنها أيضًا الحفاظ على المال:

الذي هو قوام الحياة ولا قيام لإنسان ولا بقاء له إلا بالمال الذي وصفه الله بذلك فقال: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}[٢٨] فالمال هو قوام الحياة.

٢٨ – سورة النساء الآية ٥.

النصيحة في المفهوم الغربي من وجهة نظر فلاسفتهم ومدى تطبيقها في المجتمعات الغربية المعاصرة:

علم الأخلاق والقيم عند الغرب.

يعتبر سقراط الواضع الحقيقي في نظر الغرب لعلم الأخلاق، وذلك أنه وضع المعيار الحقيقي لعلم الأخلاق، وهو المعرفة وتلك قاعدته الأخلاقية المعرفة هي الفضيلة والجهل هو الرذيلة، فقد حرص أن تكون حياته العملية وسلوكه الأخلاقي متطابقًا مع ما يدعو إليه من أفكار، وثبت حتى الممات لما حُكِمَ عليه قضاة أثينا بالموت، وأما أفلاطون فقد دعا إلى ثبات القيم من خلال نظرية المثل التي هي في نظره ثابتة وخالدة ومعياره مقارب في جوهره لمعيار سقراط ولا يختلف إلا بالتحليل والتسمية وهو العدالة.

وأما أرسطو فقد انتقد أستاذه أفلاطون في فلسفة الثنائية عالم الحس وعالم العقل ومعيار أرسطو الاعتدال أو التوسط ولم يترك له تحديدًا واضحًا إنما جعل تقديره تبعًا لظروف التقدير العاقل للفرد نفسه[٢٩]، بعد أن ندربه على صحة النظر لمعرفة هذا الوسط[٣٠]، فيقوم المعيار عندهم على الفضيلة وترك الرزيلة بمعيارهم العقلي وهذا هو الإطار العلمي.

النصيحة باعتبارها قيمة من القيم:

من تعريف القيم بإمكاننا القول أن النصيحة تندرج فيها فهي قيمة من القيم، فالقيم هي صفات، أو مُثل أو قواعد تقام عليها الحياة البشرية، فتكون بها حياة إنسانية وتعاير بها النظم والأفعال لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تتمثله منها[٣١]، وهي مجموعة من القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية وتختلف بها عن الحياة الحيوانية[٣٢]، وبناء عليه فالنصيحة هي قيمة من القيم، ومن ثم يمكننا النظر إلى المنهج الغربي في التعامل مع القيم.

٢٩ – انظر د. حمدي عبد العال، الأخلاق ومعيارها ص ٦٠ – ٦١.

٣٠ – القيم بين الإسلام والغرب ص ٢٣٥ – ٢٣٨.

٣١ – د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، السلفية وقضايا العصر ص ٤٦٢.

٣٢ – د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي وآخرون، الثقافة الإسلامية: تخصصا ومادة وقسمًا علميًّا ص ١٤ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

العقل هو المشرع الرئيسي للقيم والأخلاق عند الغرب:

يعتبر الغرب باختلاف المدارس التي ينتمون إليها العقل هو المشرع للقيم؛ حيث أقام الفيلسوف كانط –من أبرز المنسوبين للنظرية المثالية– القيم على مفهوم جديد وهو مفهوم الواجب غير المشروط وأنكر ربط الفكر الأخلاقي بنتائج الأفعال من لذات وآلام أو منافع ومضار وجعل قيمة الأفعال قائمة في باطنها، وليست في الغايات التي تقوم خارجها، وأنه يجب على الإنسان أن يرتفع بحياته إلى المستوى الأخلاقي الذي يدفعه إلى وضع الواجب في قلبه ولهذا فالأخلاق عنده مطلقة وواجباتها مسلمات، فالإنسان عنده كائن قيمي يستطيع أن يكتشف القانون الأخلاقي الذي يصلح لكل فرد ولكل زمان[٣٣] وخلاصة رأيه أن العلوم الواقعية إنما استحقت وصف العلمية؛ لأنها طابقت الشروط العقلية للمعرفة فالعقل هو المشرع للأشياء فلا ينبغي أن نلتمس في الأشياء تفسيرًا لقوانين العقل، بل ينبغي أن نلتمس في العقل نفسه تفسيرًا لقوانين الأشياء[٣٤]، فالقيم والأخلاق في الفكر الغربي ليست مرتبطة بالسماء ولا يستمدونها من الوحي، وإنما العقل هو المشرع لها، وله كامل التشريع، وهو المرجعية في قيمهم وأخلاقهم.

٣٣ – انظر د. سامية عبد الرحمن عبد السلام، القيمة الأخلاقية دراسة نقدية في الفكر الإسلامي والفكر المعاصر ص ٩٢.

٣٤ – انظر د. صالح قنصوة، نظرية القيم في الفكر المعاصر ص ١٠٥، وكذا انظر: أسس القيم في الفكر الغربي .

أسس القيم في الفكر الغربي المعاصر:

تقوم القيم في الفكر الغربي المعاصر على أسس اتخذها الغربيون وهي العقل، المنفعة أو اللذة، المادة، سنتكلم عنها في ثنايا هذا البحث.

الأساس الأول للقيم في الفكر الغربي (العقل):

ولم تجد القيم في المجتمع الغربي المعاصر أساسًا ربانيًا تقوم عليه إلا اجتهادات بشرية قاصرة كما لم تجد مصدرًا قويًا محفوظًا بحفظ الله –عز وجل– كما هو في الإسلام مما جعلها تقوم على أسس بعيدة عن حاجات البشر وما تتطلبه من قيم تنظم علاقات أفراد المجتمع وتأخذ بيدهم لتكوين مجتمع إنساني متحضر[٣٥].

كان ظهور هذا الاتجاه رد فعل مباشر لفقدان الثقة في الكنيسة باعتبارها مصدرًا وحيدًا للمعرفة، وقد سميت هذه المرحلة بعصر التنوير، وكان ظهورها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ويغلب على الفكر العقلي في تلك الفترة مضادة الدين ومناوأته له، ويرجع ذلك إلى معاداة الكنيسة للعلم واضطهادها للعلماء، واعتبار كل كشف علمي –وإن كان صحيحًا– كفرًا وزندقةً، وأن مسائل الإيمان منحة من عند الله لا يجوز أن يكون للعقل حكم فيها، أضف إلى ذلك ظهور فكر الكنيسة ومعتقداتها هزيلة ومشوهة[٣٦].

ويرجع ذلك إلى تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم الديانة النصرانية إذ جعلتها الكنيسة عقائد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه وعدت الكفر بها كفرًا بالوحي والدين، هذا بالإضافة إلى ضيق صدر الكنيسة بكل من يخالف تعاليمها الممزوجة وإصرارها الأعمى على التشبث بها[٣٧].

والمحور الذي تقوم عليه الفلسفة العقلية هو أن العقل وحده هو مصدر المعرفة اليقينية وأن له الحق في الإشراف الكامل على كل اتجاهات الحياة سياسية كانت أم قانونية أم أخلاقية أم دينية، وأن الإنسانية هدف الحياة للجميع وليس الله أو المجتمع أو الدولة أو غيرها ويطلق على هذا العصر عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي، وليس بخالق للعالم، وهو العقل، فالعقل عند أنصار هذا المذهب إله بدون وحي[٣٨].

٣٥ – القيم بين الإسلام والغرب ص١١٧.

٣٦ – د. عبد العظيم المطعني، الإسلام في مواجهة الأيدلوجيات المعاصرة ص ٧٠ – ٧٤.

٣٧ – انظر د. سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية، ص ١٤٧، وكذا القيم بين الإسلام والغرب ص١٢٠.

٣٨ – انظر د. محمد البهي، الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥٢، ٢٥٣ وكذا القيم بين الإسلام والغرب ص ١٢٠ .

ومنهم من يخالف هذا ويجعل كل القيم مرجعها إلى التجربة العملية، فيقول: إن كل قضية تحمل معنى تعبر لا محالة عن صورة مطابقة للواقع والقيم والمثل العليا ما لم تكن وصفًا لحالة موجودة في الفعل لا تكون ذات معنى وقيمة يمكن التثبت منه بالخبرة والحسية، أي إنهم ينكرون وجود حقائق وقيم مطلقة تستمد من العقل أو من أي مصدر آخر سوى التجربة، فهي بذلك سلوكيات واقعية محكومة بالأعراف الاجتماعية والمادية، وأن هذه السلوكيات أو القيم صادقة بمقدار ما تنتج من ثمار وما تؤدي من نفع والقيم في نظرهم تعبر عن انفعالات تصيب صاحبها بمشاعر ذاتية لا تخضع لأحكام موضوعية، فإذا قلت: "رد الأمانة إلى أهلها واجب أخلاقي"؛ قصدت بذلك أن تصور قيمة عليا لا أن تصف حالة موجودة في الواقع، فأنت بذلك تعبر عن شعورك وميلك وموافقتك نحو رد الأمانة ونفورك من عدم ردها إلى أصحابها، فالوضعيون يرون أن القيم الأخلاقية مجرد أوامر في صيغة مضللة كما يقول "كارناب": أو هي محاولة يقوم بها فرد يجعل من رغباته الشخصية أماني أو رغبات يدين بها غيره من أفراد المجتمع كما يقول "برترندرسل" تعبيرًا عن اتجاهه الأخير في رفض موضوعية القيم الأخلاقية[٣٩].

يقول وليم جيمس: "يجب علينا أن نسير في تجاربنا ونمضي في تفكيرنا حول التجارب؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل[٤٠]، فالتجربة هي التي تجعلهم يقدمون ويحجمون ويشرعون ويحرمون.

الأساس الثاني للقيم في الفكر الغربي المنفعة (اللذة أو السعادة):

ومفاد هذا الأساس: أنه يستند على أساس أن اللذة هي الغرض الوحيد الذي تهدف إليه رغبات الإنسان، وأنها مستوى الأفعال الإنسانية ومعيار الأحكام الخلقية، ويعتبر (بنتهام) المؤسس للمذهب النفعي الذي يرى: أن السعادة لأكبر عدد من الناس تتحقق بإرضاء اهتماماتهم الفردية، وهو القائل بحساب اللذات حسابًا رياضيًّا[٤١]، والاتجاه النفعي المبني على اللذة يعتبر مذهبًا فلسفيًّا غير أخلاقي، فهو يرى: أن اللذة هي الشيء الخير الوحيد في الوجود، وهو مذهب قديم جديد؛ إذ قد تأسس في العهد اليوناني القديم وظهر بثوبه الجديد في مذهب المنفعة الذي نادى به فلاسفة أوروبا في الوقت الحاضر.

فقد ذهب الفيلسوف اليوناني (أرستبس) إلى أن اللذة هي صوت الطبيعة، وأن الغريزة هي المحرك الأول لأفعال الإنسان مثله في ذلك كمثل الحيوان والطفل، وجعل معيار اللذة والألم هي معيار القياس لخيرية الأفعال وشريتها، وقصر اللذة على اللذات البدنية.

---

٣٩ – انظر د. توفيق الطويل، أسس الفلسفة ص ٤٤٥، ٤٤٦، وانظر د. عبد الرحمن الزنيدي، السلفية ص ٤٦٧، ٤٦٨.

٤٠ – وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، السفر الثاني، النقل والدين، ص ١٦ ترجمة محمد حب الله.

٤١ – انظر رونالد سترومبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة أحمد الشيباني ص ٦٩٥.

إن معالم المذهب النفعي تتلخص في التقاء مفكريه على القول بأن اللذة أو المنفعة هي الخير المرغوب فيه والألم هو الشر الذي يجب تفاديه، ومن ثم فإن المنفعة عندهم هي مقياس الخيرية[٤٢].

ومن المعاصرين من الفلاسفة الإنجليز الذين يتبعون هذا المذهب (أوميابنثام) ومذهبه في المنفعة: أنه يرى أن الناس بطبائعهم يسعون وراء اللذة ويجتنبون الألم كالحيوانات تمامًا مع امتيازهم عن الحيوان باتباعهم لمبدأ النفعية لاستخدامهم العقل.

ولهذا السبب أصبح الرجل الحديث عبدًا للمنفعة، ساعيًا وراء اللذات دون التفكير في الغاية التي يلتمسها من ورائها، ولذا يمكن القول بأن إنسان العصر الحديث أصبح مفتقرًا تمامًا إلى الإحساس بالقيم تلك القيم التي تكمن وراء الأشياء وتضفي عليها كل ما لها من معنى أو دلالة[٤٣].

ومن هؤلاء (جون ستيورات مل) رغم أنه نشأ منذ حداثته في رحاب المذهب البثامي في المنفعة مشاركا أستاذه بنثام في إقرار المنفعة كغاية لسلوك الإنسان ومعيار للأحكام فقصد بالمنفعة تحصيل اللذة والخلو من الألم.

ويتضح المذهب بصورة أوضح عند أحد كبار فلاسفته، وهو (وليم جيمس) الذي يرى أن الخير يقوم في إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته.

ولذا؛ فإن نظريات العلم في نظر النفعيين مجرد فروض واحتمالات ومعيار الصدق هو مدى ما يحققه الفرد من وجود النفع العملي المثمر، ومن هنا جاز في منطق هذه النفعية أن يوضع لحل المشكلة الواحدة مجموعة من الفروض قد تصدق كلها أو يصدق كثير منها في وقت واحد متى أفضت هذه الفروض إلى تحقيق منفعة.

الأساس الثالث للقيم في الفكر الغربي (المادة):

من أسس القيم عند الغرب المادة، وهي مذهب فلسفي يعتبر العقل أو الفكر سابقًا على المادة سواء في الوجود أو المعرفة أو القيم، وأن وجود الأشياء مرهون بإدراكها فما يدرك بالعقل فهو موجود ومالا يدرك به فمعدوم[٤٤].

ولعل الذي جعل الناس ينصرفون إلى المادية هو فشل الكنيسة وإخفاقها في تقديم تفسير صحيح للعلم والمعرفة، وانحطاط المعرفة التي كانت تتبناها طوال فترة سيادتها مما دفع بالكثير من العلماء والطبيعيين إلى مهاجمة الكنيسة ورفض تلك المعرفة المحصورة فيها مما أودى بحياة كثير منهم لكن الموجة

٤٢ – الفلسفة الخلقية د. توفيق الطويل ص ٢٨٧.

٤٣ – المشكلة الأخلاقية د. زكريا إبراهيم ص١٦٨.

٤٤ – انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي ص ١٩٦ طبع سنة ١٩٧٩م الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، مصر، وانظر د. راجح عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ص ٢٤٣، ٢٤٤ الطبعة الأولى.

العلمية سيطرت في النهاية على الموقف فهوجمت الكنيسة مهاجمة عنيفة من قبل كل من أنصار المذهب العقلي الحسي على حد سواء[٤٥]، وكذلك فشل الفلسفة العقلية المثالية وإفلاسها في إبعاد التوجيه الكنسي كلية عن الإنسان وتنظيم الجماعة الإنسانية على هذا الأساس إذا مالت هذه الفلسفة على عهد (هيجل) إلى تأييد الدين والوحي من جديد فأنكرت الفلسفة المادية الوضعية على الفلسفة المثالية موافقتها للكنيسة وتأييدها لدينها المحرف[٤٦].

النصيحة والحرية الفردية:

كانت هذه هي أسس القيم في الفكر الغربي، ولا يوجد في حناياها الكلام على القيمة التي هي موضوع البحث، وذلك لطغيان جانب آخر عليها وهو الحرية الفردية، حيث تقديس الحرية الفردية على حساب النصيحة، وبسبب هذا لم يجد الباحث فيما وقع بين يديه من بحوث تتكلم عن الفكر الغربي ذكر النصيحة من قريب ولا من بعيد مما دفع الباحث للبحث عن أسباب هذا التجاهل، فوجدت أن العالم الغربي أصبح متجة إلى الحرية الشخصية (personal freedom) وألا يتدخل الشخص في حياة الآخرين، ولعل هذا هو السبب الرئيس في عدم ذكر النصيحة، وعدم الاعتماد عليها في إصلاح المجتمع، وهم يرون التقديس لحرية الفرد ولو على حساب غيرها من القيم، ففي فكرهم أن إحساسهم بالحرية يبدأ في الضياع عند تلقي القيم والمبادئ من المجتمع والتي تتناقض مع ما يرونه منذ نشأتهم فيقولون: نفقد إحساسنا بالحرية عندما يبدأ المجتمع من حولنا بتعليمنا القيم و المبادئ. تلك القيم و المبادئ التي تتناقض مع قيمنا و مبادئنا عندما كنا صغارا. عندما كنا أحرارًا. نستبدل عندها قيم الأحرار بقيم المستعبدين، و مبادئ الأحرار بمبادئ المستعبدين.

وقد تركز من قبل اهتمام الأخلاق في المسيحية بالفرد وبالأخلاق الفردية خاصة، وقد أكد هذا الاتجاه أن المسيح –عليه السلام– قد أكد أن المسيحية لا شأن لها بإصلاح المجتمعات ولا بمسائل الحكم: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولذلك نجد جانب الأخلاق الاجتماعية خافتًا ضعيفًا في التعاليم المسيحية، ونتيجة لهذا المنحى الفردي وترك إصلاح الجماعة أثر في تهدم القيم في المجتمع المسيحي[٤٧].

ولكن مما يدعو إلى الملاحظة أن الفيلسوف سقراط الذي كان له الكلمة الكبرى المسموعة في المجتمع المسيحي كان ممارسًا للنصيحة والسعي من أجل إصلاح المجتمع، ولذلك نهى قومه عن عبادة

٤٥ – انظر محمود عثمان، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ٨١ .

٤٦ – انظر د . محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٦٦، وكذا القيم بين الإسلام والغرب ص١٤٢.

٤٧ – الاخلاق في الإسلام يعقوب المليجي ص٢٣١، ٢٣٢.

الأوثان والشرك ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه من هذا أيضًا، فثوروا عليه الغاغة وألجأوا ملكهم إلى قتله فحبسه الملك ثم سقاه السم بعد اتهامه بالكفر بآلهة المدينة وأنه ينكر الآلهة ويفسد الشباب فكان يقول أمام المحكمة أنه كان يعظ المواطنين ويحثهم على الصلاح بتعاليمه ونصائحه راغبًا في هدايتهم، وأنه يتقبل الموت ولا يعتبره شرا بل يرى فيه الخير كل الخير سواء افترضناه سباتا أبديا أم بعثا لحياة جديدة[٤٨].

والدين في الحقيقة ليس مقيدًا للحريات الشخصية سواء بالنصيحة أو في غيرها ولكنه المنظم للحياة بشكل عام فإننا نجد السيارات مقيدة بالسير على الجانب الأيمن من الطريق، والتوقف عند كل إشارة حمراء، والدوران في مناطق معينة وفق تعليمات المرور، وليس هذا انتقامًا من السيارات وأصحابها، وإنما هو تنظيم اقتضاه منع الصدام بين السيارات بعضها البعض، وبين الركبان والمشاة، ولو تصورنا طريقًا خاليًا من الناس دائمًا، لأمكن أن يسير السائق فيه بسيارته أنى شاء وكيف شاء. فتدخل الدين هنا في حرية الفرد، ووضع الإشارات الحمراء أمامه في بعض المواقف إنما هو تنظيم «لمرور» الإنسان، وسيره في طريق الحياة. إنما هو عمل على منع «الصدام» بينه وبين غيره من الناس، حماية له من الخطر أن يصيبه هو، أو يصيب غيره من جراء انطلاقه بلا قيود ولا حدود[٤٩]. وكان لعاقبة الحرية الشخصية بالمفهوم الغربي والذي يعني التحرر من كل شيء حتى من القيم الدينية والتعاليم الربانية أصدرت الجمعية البريطانية لمعالجة الشذوذ الجنسي تقريرًا قالت فيه: إن مليون رجل في بريطانيا –وربما أكثر– مصابون بالشذوذ الجنسي "[٥٠]، وكان قرابة ٧٢ مليون أمريكي يتناولون الخمور[٥١]، خرجت النساء السويديات في مظاهرة عامة، تشمل أنحاء السويد، احتجاجًا على إطلاق الحريات الجنسية في السويد، اشتركت في المظاهرات حوالي ١٠٠،٠٠٠ (مائة ألف) امرأة[٥٢]، وكانت من أكبر نتائج الحرية في الغرب أن كثيرًا من المناطق السكنية المأهولة العامرة يلزم أكثر من نصف السكان منازلهم بعد غروب الشمس خوفًا من تعرضهم لأي اعتداء أثناء تجوالهم أو مرورهم بسياراتهم، والثلث ينخلع رعبًا عندما يشاهد وجهًا غير مألوف في الحي، والخمس مليء خوفًا واضطرابًا حتى أنهم يفضلون النزوح والهروب، ولكن لا يدرون أين يجدون الأمن، وترتفع كل سنة وبشكل غير عادي، نسبة الحاملين لرخص نقل وحيازة الأسلحة النارية والبنادق في منازلهم وسياراتهم، وكلاب الحراسة الضخمة الشرسة أصبح وجودها في المنازل أمرًا طبيعيًا كوجود القطط والجراء المدللة، وفوق هذا كله يزداد الشعور بأن الحكومة،

---

٤٨ – الاخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٣٦، ٣٧.

٤٩ – انظر الحرية الشخصية وآثاؤها د. القرضاوي، موقع القرضاوي
http://www.qaradawi.net/library/٥٤/٢٧٥٦.html.

٥٠ – الأهرام القاهرية في ١٩٦٥/٥/٧.

٥١ – الأهرام القاهرية في ١٩٦٥/٥/٣.

٥٢ – أخبار اليوم القاهرية في ١٩٦٥/٤/٢٤.

على جميع مستوياتها الولائية والفيدرالية، لا تقدر أو لا تريد أو لن تحمي المواطن العادي!! والحالة في أنصع صورها تبدو مستحيلة، ولكن الحقيقة مرعبة تمامًا[٥٣].

ومن المفاهيم الخاطئة أن تفهم الحرية على أنها عدم الإضرار بالآخرين، وهذا يعارض مبدأ الحلال والحرام الشرعي فالذي له حق المنع والإباحة هو الشارع لا غيره بالضوابط والمقاصد الشرعية وليس بمعيار عدم الإضرار بالآخرين، ولذلك جاءت الشريعة بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار يعني لا يضر المرء نفسه أو غيره ولا يقابل الضرر بضرر مقابل[٥٤].

٥٣- الشهاب اللبنانية (العدد ١٦ من السنة الأولى في ١٩٦٧/٩/١٥) من مجلة "تايم" الأمريكية في ٢٤ آذار سنة ١٩٦٧، انظر الحرية الشخصية وآثارها د. القرضاوي، موقع القرضاوي

http://www.qaradawi.net/library/٥٤/٢٧٥٦.html بتاريخ ٢٥/ ١١/ ٢٠١٢ الساعة ٩ مساءا.

٥٤ – الشيخ المنجد، موقع الشيخ المنجد، http://www.almunajjid.com/khotab/١٤٩٤ بتاريخ ٢٠١٢/١١/٢٥ الساعة ٩ مساءا.

مقارنة بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي في الاعتماد على النصيحة في إصلاح المجتمعات:

في البداية لابد أن نعرف أننا عندما نعقد المقارنة بين النصيحة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي بناء على ماسبق فإننا نستعد لأن نقارن بين شيء ولا شيء فكما مر في البحث أن النصيحة في الفكر الإسلامي عليها عماد الدين لذلك جعلها النبي صلى الله عليه وسلم هي الركن الأعظم فيه فقال: الدين النصيحة والمقصد من تشريعها الحفاظ على الكليات الخمس ومن أجل إصلاح المجتمع والنفس والحياة والإنسان بينما في الفكر الغربي لا يذكرونها ولا تعتبر عندهم من القيم المعتبرة بل بالغوا في الحرية الشخصية أو الحرية الفردية وقدسوها على حساب النصيحة فليس لها ذكر عندهم بل يعتبرونها من التدخل في الأمور الشخصية وانتهاكًا لمقدسات الفردية والحرية فلذلك المقارنة بين الفكرين يعتبر في البداية بين شيء ولا شيء أو بين كل شيء ولا شيء ومن أوجه المقارنة:-

● أن النظرة الإسلامية للقيم تنطلق من منطلق الشرع المطهر المرتبط أساسًا بالله -تبارك وتعالى- بخلاف النظرة الغربية للقيم، ومنها النصيحة التي تنظر إليها نظرة مادية بحتة.

● هناك اضطراب وتخبط شديد في فهم طبيعة القيم في الفكر الغربي المعاصر وصلتها بالإنسان فبعضهم يردها إلى العقل البشري والبعض إلى التجربة، فليس لديهم تصور سليم، وواضح لهذه المصدرية، فما يجمع آرائهم هو عدم التيقن والحيرة في فهم هذه القيم التي يرجعون إليها.

● أن غاية النصيحة في الفكر الإسلامي هو سعادة الإنسان في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة فهما مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، أما في الفكر الغربي فنظرته مادية بحتة تهدف إلى تحقيق الرغبات ونيل الملذات بالنظر إلى الحياة الدنيا فقط وغالبا ما تكون هذه اللذات متوهمة غير حقيقية.

● النصيحة في الفكر الإسلامي تحافظ على الشخصية الإسلامية ومكانتها في هذا العالم ومعرفة رسالتها في هذه الحياة بالمحافظة عليها وعلى الغير ومحاولة إصلاحها وإصلاح الغير مندفعة إلى هذا بالقيم الأخروية التي تدفع الإنسان للعمل رغبة بالسعادة المتمثلة في الجنة وهروبا من الشقاء المتمثل بالنار، بينما في الفكر الغربي الذي مسخ الإنسان وأبعده عن السماء بالمادية أو المنفعة الشخصية القاصرة على النفس دون التقييد بدين أو شرع بالإضافة إلى اتخاذهم القوة أو العقل أو المادة أو المنفعة واللذة تركًا لهذا الخلق لعدم ارتباطه بما يرجونه ويؤملونه بناء على تصورهم للسعادة.

● النصيحة في الفكر الغربي ضلت وطغت عليها ما يسمونه الحرية الشخصية وأطلق العنان للنفس البشرية للذاتها دون التقيد بأي قيود في مراعاة المجتمع وقد أخذت أكبر من حجمها بينما في الفكر

الإسلامي نرى التوازن بين الجانبين الاهتمام بالنصيحة من أجل إصلاح النفس والغير وعدم انتهاك الحرية الشخصية التي هي من الحقوق في الإسلام[٥٥].

والحق أن القيم تفقد قيمتها الحقيقة لدى أي فكر أو فلسفة لا تقيم لوجود الله اعتبارًا في حياتها.

٥٥ – القيم بين الإسلام والغرب ص ٢٧٠.

أهم المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري (١٣٩٩) **النهاية في غريب الحديث**، المكتبة العلمية، بيروت، تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.

٣. الألباني، محمد ناصر الدين، **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض.

٤. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي.

٥. البخاري، محمد إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى.

٦. بن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت الطبعة الأولى.

٧. البيهقي، احمد بن الحسين بن علي (١٤١٤)، **السنن الكبرى**، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

٨. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، **الجامع الصحيح**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد شاكر وآخرون.

٩. الجرجاني، علي بن محمد (١٤٠٥)، **التعريفات**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم الابياري.

١٠. د. إبراهيم، زكريا، **مشكلة الحرية**، دار الطباعة الجديدة، مصر، الطبعة الثانية.

١١. د. المانع، مانع بن محمد، **القيم بين الإسلام والغرب**، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٢. د. حلمي، مصطفى، **الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ.

١٣. د. عطية، أحمد عبد الحليم، **الأخلاق في الفكر العربي المعاصر**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.

١٤. الرازي، محمد بن أبي بكر (١٩٩٥)، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق محمود خاطر.

١٥. الزبيدي، محمد مرتضى، **تاج العروس**، دار الهداية، تحقيق مجموعة من المحققين.

١٦. السلمي، عز الدين بن عبد السلام، **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٧. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الموافقات**، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، تحقيق أبو عبيدة آل سلمان.

١٨. العروي، عبد الله، **مفهوم الحرية**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، ١٩٩٣م.

١٩. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٠. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٢١. مطهر، إسماعيل، **القانون والحرية في حضارة الغرب**، مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٤٧م.

٢٢. المليجي، يعقوب، **الأخلاق في الإسلام**، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٥م.